سيد قطب
1966 - 1906

هو سـيد بن الحاج قطب بن ابراهيم، ولد في أحضان عائلة موسرة نسبياً في قرية "قها" الواقعة في محافظة أسيوط. تربى تربية دينية متميزة في كنف عائلته. وقد انتظم في مدرسة القرية حيث حفظ القرآن بكامله وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره. بعد اتمامه المرحلة الابتدائية في القرية سافر الى القاهرة فأتم دراسته الثانوية، ودخل كلية "دار العلوم" ليتخرج منها مجازاً في اللغة العربية وآدابها، بعدها أمضى فيها أربع سنوات يدرس التاريخ والجغرافيا والأدب العربي واللغة الانكليزية وعلم الاجتماع وعلم التربية والرياضيات والفيزياء والفلسفة والدين.

عام 1939 هي بداية فترة تحوله نحو الايديولوجية الاسلامية حيث توجت في نهاية عام 1948 بظهور كتابه "العدالة الاجتماعية في الاسلام" الذي أبان فيه صراحة بأن العدالة الاجتماعية الصحيحة التي هي أمل البشرية لا يمكن أن تتحقق الا في ظل النظام الاسلامي، وبأنه ينبغي أن يكون للمسلمين أدب منبثق عن التصور الاسلامي.

في عام 1949 سافر في بعثة ثقافية الى الولايات المتحدة الاميركية لدراسة المناهج التعليمية حيث بقي سنتين ونصفا متنقلاً بين واشنطن وكاليفورنيا، أرسل خلالها الى صديقة توفيق الحكيم رسالة يهاجم فيها الحضارة الاميريكية التي لا تأبه بالقيم الروحية.

انضم عام 1951 الى جماعة الأخوان المسلمين واصبح مفكر الحزب الذي يعتد برأيه بالرغم من أنه لم يتبوأ منصباً قيادياً، لأن، ذلك يفترض انتساب العضو الى الحزب فترة طويلة وانصرف نحو الايديولوجية الاسلامية يدعو اليها في جريدة الأخوان المسلمين التي تولى رئاسة تحريرها قبل اعتقاله في عام 1954، هذا وقد كتب العديد من الكتب في الفكر والايديولوجية الاسلامية مثل "الاسلام والسلام العالمي"، "هذا الدين"، "المستقبل لهذا الدين"، "خصائص التصور الاسلام"، "معالم في الطريق"... الخ ينتقد بشدة محبذي فكرة فصل الدين عن الدولة، وأبعاد الدين عن السياسة، وعلمنة الدولة...، ويهاجم سياسة الأزهر وخطته التقليدية القائمة على تفسير القرآن وشرح التفسير...

حين أتهمت الجماعة في 27 تشرين الاول 1954 بمحاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر، اعتقل سيد قطب مع غيره، وحكم عليه بالسجن مدة خمسة عشر عاما بالأشغال الشاقه. خرج سيد قطب من السجن عام 1964 وفي عام 1965 أخرج كتابه "معالم في الطريق"، فأعيد اعتقاله مرة أخرى مع غيره من الاخوان المسلمين بتهمة تدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة، وصدر عليه الحكم بالاعدام من قبل محكمة أمن الدولة العليا في القاهرة. اعدم سيد قطب في 1966/8/9.

سيد قطب
معالم في الطريق*

الإسلام هو الحضارة

الإسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات... مجتمع إسلامي، ومجتمع جاهلي...
"المجتمع الإسلامي" هو المجتمع الذي يطبق فيه الإسلام... عقيدة وعبادة، وشريعة ونظاماً، وخلقاً وسلوكاً.. و"المجتمع الجاهلي" هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته، وقيمه وموازينه، ونظامه وشرائعه، وخلقه وسلوكه..

ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم ناسًا ممن يسمون أنفسهم "مسلمين"، بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، وإن صلى وصام وحج البيت الحرام! وليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلاماً من عند نفسه- غير ما قرره الله سبحانه، وفصَّله رسوله صلى الله عليه وسلم، ويسميه مثلاً "الإسلام المتطور"!

و"المجتمع الجاهلي" قد يتمثل في صور شتى - كلها جاهلية - : قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى، ويفسر التاريخ تفسيراً مادياً جدلياً، ويطبق ما يسميه "الاشتراكية العلمية" نظاماً. وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى، ولكن يجعل له ملكوت السماوات، ويعزله عن ملكوت الأرض، فلا يطبق شريعته في نظام الحياة، ولا يحكِّم قيمه التي جعلها هو قيماً ثابتة في حياة البشر، ويبيح للناس أن يعبدوا الله في البيَع والكنائس والمساجد، ولكنه يُحَّرِم عليهم ان يطالبوا بتحكيم شريعة الله في حياتهم، وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله في الأرض، التي ينص عليها قوله تعالى: "وهو الذي في السماء إلهٌ وفي الأرض إلهُ..." (الزخرف: 84)
ومن ثم لا يكون هذا المجتمع في دين الله الذي يحدده قوله: "إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه... ذلك الدين القيم..." (يوسف: 40)

وبذلك يكون مجتمعاً جاهلياً، ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله، في البيع والكنائس والمساجد. "المجتمع الإسلامي" - بصفته تلك- هو وحده "المجتمع المتحضر،" والمجتمعات الجاهلية - بكل صورها المتعددة- مجتمعات متخلفة! ولا بد من إيضاح لهذه الحقيقة الكبيرة.

حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده - متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية - تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر.. وتكون هذه هي "الحضارة الإنسانية" لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في

*المصدر: سيد قطب. معالم في الطريق. دار الشروق ببيروت/ القاهرة الطبعة الشرعية التاسعة .1982

المجتمع... ولا حرية، في الحقيقة، ولا كرامة للإنسان، ممثلاً في كل فرد من أفراده، في مجتمع بعضه أرباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون!

ولا بد أن نبادر فنبيّن أن التشريع لا ينحصر فقط في الأحكام القانونية- كما هو المفهوم الضيق في الأذهان اليوم لكلمة الشريعة- فالتصورات والمناهج، والقيم والموازين، والعادات والتقاليد.. كلها تشريع يُخِضعْ الأفراد لضغطه. وحين يصنع الناس - بعضهم لبعض- هذه الضغوط، ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع، لا يكون هذا المجتمع متحرراً، إنما هو مجتمع بعضه أرباب وبعضه عبيد، كما أسلفنا، وهو من ثم، مجتمع متخلف.. أو بالمصطلح الإسلامي.. "مجتمع جاهلي"!

والمجتمع الإسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه إله واحد، ويخرج فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل، الذي ترتكز إليه حضارة الإنسان، وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له، وهو يعلن خلافته في الأرض عنه، ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الأعلى...

وحين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، ويكون هذا كله صادراً من إله واحد، تتمثل فيه السيادة العليا للبشر، وليس صادراً من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر.. يكون ذلك التجمع ممثلاً لأعلى ما في "الانسان" من خصائص.. خصائص الروح والفكر.. فأما حين تكون أصرة التجمع في مجتمع هي الجنس واللون والقوم والأرض... وما إلى ذلك من الروابط، فظاهر أن الجنس واللون والقوم والأرض لا تمثل الخصائص العليا للإنسان... فالإنسان يبقى إنساناً بعد الجنس واللون والقوم والأرض، ولكنه لا يبقى إنساناً بعد الروح والفكر! ثم هو يملك - بمحض إرادته الحرة - أن يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته، ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه، كما إنه لا يملك أن يحدد مولده في قوم ولا في أرض... فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر يتعلق بإرادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر.. أما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على أمر خارج عن إرادتهم الإنسانية فهو لمجتمع متخلف... أو بالمصطلح الإسلامي... هو "المجتمع الجاهلي"!

والمجتمع الإسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية، والذي تعتبر فيه العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر والعربي والرومي والفارسي والحبشي وسائر أجناس الأرض في أمة واحدة، ربها الله، وعبوديتها له وحده، والأكرم فيها هو الأتقى، والكل فيها أنداد يلتقون على أمر شَّرعه قدره الله لهم، ولم يشَّرعه أحد من العباد!

وحين تكون "إنسانية" الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع، وتكون الخصائص "الإنسانية" فيه هي موضع التكريم والاعتبار، يكون هذا المجتمع متحضراً... فأما حين تكون "المادة" - في أية صورة - هي القيمة العليا ... سواء في صوره "النظرية" كما في التفسير الماركسي للتاريخ! أو في صور "الإنتاج المادي" كما في أمريكا وأوروبا وسائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي قيمة عليا تُهدَرْ في سبيلها القيم والخصائص

الإنسانية... فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متخلفاً... أو بالمصطلح الإسلامي مجتمعاً جاهلياً!

إن المجتمع المتحضر.. الإسلامي.. لا يحتقر المادة، لا في صوره النظرية (باعتبارها هي التي يتألف منها هذا الكون الذي نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر فيه أيضا) ولا في صور "الإنتاج المادي". فالإنتاج المادي من مقومات الخلافة في الأرض عن الله - ولكنه فقط لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص "الإنسان" ومقوماته!... وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته. وتهدر فيها قاعدة "الأسرة" ومقوماتها، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته.. إلى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة في الإنتاج المادي!

وحين تكون "القيم الإنسانية" و "الأخلاق الإنسانية" التي تقوم عليها، هي السائدة في مجتمع، يكون هذا المجتمع متحضراً. والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيماً "متطورة" متغيرة متبدلة، لا تستقر على حال ولا ترجع الى أصل، كما يزعم التفسير المادي للتاريخ، وكما تزعم "الإشتراكية العلمية" إنها القيم والأخلاق التي تُنمي في الانسان خصائص الإنسان التي يتفرد بها دون الحيوان، والتي تُغَلبَ فيه هذا الجانب الذي يميزه ويعزوه عن الحيوان، وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه وتَغلب الجوانب التي يشترك فيها مع الحيوان. وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم "وثابت" لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها "التطوريون"! و "الاشتراكيون العلميون"!

عندئذ لا يكون اصطلاح البيئة وَعرفها هو الذي يحدد القيم الأخلاقية، إنما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان ثابت.. عندئذ لا تكون هناك قيم وأخلاق "زراعية" وأخرى "صناعية"! ولا قيم وأخلاق "رأسمالية" وأخرى "اشتراكية"، ولا قيم وأخلاق "برجوازية" وأخرى "صعلوكية"! ولا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومستوى المعيشة وطبيعة المرحلة.. إلى آخر هذه التغيرات السطحية والشكلية.. إنما تكون هناك - من وراء ذلك كله - قيم وأخلاق "إنسانية" وقيم وأخلاق "حيوانية" - إذا صح هذا التعبير!- أو بالمصطلح الإسلامي: قيم وأخلاق "إسلامية" وقيم وأخلاق "جاهلية".

إن الإسلام يقرر قيمة وأخلاق هذه "الإنسانية" - أي التي تُنمّي في الإنسان الجوانب التي تفرّقه وتميّزه عن الحيوان - ويمضي في إنشائها وتثبيتها وصيانتها في كل المجتمعات التي يهيمن عليها سواء كانت هذه المجتمعات في طور الزراعة أم في طور الصناعة، وسواء كانت مجتمعات بدوية تعيش على الرعي أو مجتمعات حضرية مستقرة، وسواء كانت هذه المجتمعات فقيرة أو غنية... إنه يرتقي صعداً بالخصائص الإنسانية، ويحرسها من النكسة إلى الحيوانية... لان الخط الصاعد في القيم والاعتبارات يمضي من الدرك الحيواني إلى المرتفع الإنساني.. فإذا انتكس هذه الخط - مع حضارة المادة - فلن يكون ذلك حضارة! إنما هو "التخلف" أو هو "الجاهلية"!

وحين تكون "الأسرة" هي قاعدة المجتمع. وتقوم هذه الأسرة على أساس "التخصص" بين الزوجين في العمل. وتكون رعاية الجيل الناشئ هي أهم وظائف

الأسرة.. يكون هذا المجتمع متحضراً.. ذلك أن الأسرة على هذا النحو - في ظل المنهج الإسلامي- تكون هي البيئة التي تنشأ وتُنَمَّي فيها القيم والأخلاق "الإنسانية" التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة، ممثّلة في الجيل الناشئ، والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة، فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعي) هي قاعدة المجتمع... حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال، لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأسرة.. حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة.. وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الجيل الجديد، وتُؤّثر هي - أو يُؤْثِر لها المجتمع- أن تكون مضيفة في فندق أو سفينة أو طائرة!.. حين تنفق طاقتها في "الإنتاج المادي" و "صناعة الأدوات" ولا تنفقها في "صناعة الإنسانية"! لأن الإنتاج المادي يومئذ أغلى وأعز وأكرم من "الإنتاج الإنساني"، عندئذ يكون هنا هو "التخلف الحضاري" بالقياس الإنساني... او تكون هي "الجاهلية" بالمصطلح الإسلامي!

وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة في تحديد صفة المجتمع.. متخلف أم متحضر، جاهلي أم إسلامي!.. والمجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية في هذه العلاقة لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التفوق الصناعي والاقتصادي والعلمي! إن هذا المقياس لا يخطئ في قياس مدى التقدم "الإنساني"..

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينجسر المفهوم "الأخلاقي"، بحيث يتخلي عن كل ما له علاقة بالتميز "الإنساني" عن الطابع "الحيواني"! ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية - ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة - رذيلة أخلاقية..

والكتاب والصحفيون والروائيون في المجتمعات الجاهلية هنا وهناك يقولونها صريحة للفتيات والزوجات :إن الاتصالات (الحرة) ليست رذائل أخلاقية. الرذيلة الأخلاقية أن يخدع الفتى رفيقته أو تخدع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود، بل الرذيلة أن تحافظ الزوجة على عفتها إذا كانت شهوة الحب لزوجها قد خمدتّ والفضيلة أن تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة! عشرات من القصص هذا محورها! ومئات من التوجيهات الإخبارية والرسوم الكاريكاتورية والنكت والفكاهات هذه إيحاءاتها.. مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة ... غير متحضرة.. من وجهة نظر "الإنسان" وبمقياس خط التقدم "الإنساني"..

إن خط التقدم الإنساني يسير في اتجاهِ "الضبط" للنزوات الحيوانية، وحصَّرها في نطاق "الأسرة" على اساس "الواجب" لتؤدي بذلك "وظيفة إنسانية" ليست اللذة غايتها، وإنما هي إعداد جيل إنساني يخلف الجيل الحاضر في ميراث الحضارة "الإنسانية" التي يميزها بروز الخصائص الإنسانية.. ولا يمكن إعداد جيل يترقى في خصائص الإنسان، ويبتعد عن خصائص الحيوان، إلا في حضن أسرة محوطة بضمانات الأمن والاستقرار العاطفي، وقائمة على أساس الواجب الذي لا يتأرجح مع

الانفعالات الطارئة.. وفي المجتمع الذي تنشئه تلك التوجيهات والإيحاءات الخبيثة المسمومة، والذي ينحسر فيه المفهوم الأخلاقي، فيتخلى عن كل آداب الجنس، لا يمكن أن يقوم ذلك المحضن الإنساني.. من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والإيحاءات والضمانات الإسلامية هي اللائقة بالإنسان. ويكون ״الإسلام هو الحضارة״ ويكون المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر... بذلك المقياس الثابت الذي لا يتميع أو لا ״يتطور״.

وأخيراً فإنه حين يقوم ״الإنسان״ بالخلافة عن ״الله״ في أرضه على وجهها الصحيح: بأن يُخْلِصْ عبوديته لله ويَخلَص من العبودية لغيره، وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره، وأن يُحَكِّم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها، وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة. ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي، ويستخدمها في ترقية الحياة، وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها، وجعل تلك النواميس الكونية أختامها، ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة.. أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق، ويصِّنع المادة الخام، ويقيم الصناعات المتنوعة، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله.. حين يصبح وهو يصنع هذا كله ״ربانيا״ يقوم بالخلافة عن الله على هذا النحو - عبادة لله. يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة.. فأما الإبداع المادي - وحده- فلا يسمى في الإسلام حضارة.. فقد يكون وتكون معه الجاهلية.. وقد ذكر الله من هذا الإبداع المادي معرض وصف الجاهلية نماذج: ״أتبنون بكل ريع آيَةُ تعبثون؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون! وإذا بطشتم بطشتم جبارين. فاتقوا الله وأطيعون. واتقوا الذي أَمَدَّكمُ بما تعلمون. أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون. إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم״. (الشعراء : 128 - 135)

״أتتركون فيما ها هنا آمنين؟ في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين؟ فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون״. (الشعراء: 146 - 152)

״ فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغته، فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين״... (الأنعام : 44 - 45)

״حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيَّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس״. (يونس : 24)

ولكن الإسلام - كما أسلفنا- لا يحتقر المادة، ولا يحتقر الإبداع المادي، إنما هو يجعل هذا اللون من التقدم- في ظل منهج الله- نعمة من نعم الله على عباده، يبشرهم به جزاء على طاعته:

"فقلت: استغفروا ربكم، إنه كان غفَّارًا، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا". (نوح: 10 - 12)
"ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون".... (الأعراف: 96)

المهم هو القاعدة التي يقوم عليها التقدم الصناعي، والقيم التي تسود المجتمع، والتي يتألف من مجموعها خصائص الحضارة "الإنسانية"..

بعد.. فإن قاعدة انطلاق المجتمع الإسلامي، وطبيعة تكوينه العضوي، تجعلان منه مجتمعاً فريداً لا تنطبق عليه أية من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي.. المجتمع الإسلامي وليد الحركة، والحركة فيه مستمرة، وهي التي تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم، ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم.

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري.. إنها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر، تُنشيء لهم تصوراً خاصاً للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات، وتحدد لهم منهجاً للعمل يترجم هذا التصور.... الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة الكون... إنها - كما قلنا - آتية لهم من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري... وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه.

إنه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الانسان وعن محيط الكون المادي. وبهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن أحد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه، ودون أن يكون للإنسان يد فيه- في ابتداء الأمر - تبدأ أولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الإسلامي، ويبدأ معها عمل "الإنسان" أيضا. إنسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبي، الجارية بقدر الله وحده. وحين يؤمن هذا الإنسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامي (حكماً).. إن الإنسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه.. إنه سينطلق بها... هذه طبيعتها.. طبيعة الحركة الحية.. إن القوة العليا التي دفعت بها إلى هذا القلب تعلم أنها ستتجاوزه حتماً!.. إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدماً.

وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة أنفار، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع، مجتمع إسلامي مستقل، منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة، ولا تسود فيه قيمها الأساسية- القيم التي أسلفنا الإشارة إليها - وهنا يكون المجتمع الإسلامي قد وجد (فعلاً)! والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مائة، والمائة يصبحون ألفا، والألف يصبحون إثني عشر ألفا.. ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي!

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره، وانفصل بقيمه واعتباراته، وانفصل بوجوده وكينونته، عن المجتمع الجاهلي - الذي أخذ منه أفراده - وتكون الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع، وأعطته وزنه ومكانه في هذا

المجتمع- حسب الميزان والاعتبار الإسلامي- ويكون وزنه هذا معترفا له به من المجتمع دون أن يزكي نفسه أو يعلن عنه بل إن عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليواري نفسه عن الأنظار المتطلعة إليه في البيئة!

ولكن "الحركة" التي هي طابع العقيدة الإسلامية، وطابع هذا المجتمع الذي انبثق منها، لا تدع أحداً يتوارى! إن كل فرد من أفراد هذا المجتمع لا بد أن يتحرك! الحركة في عقيدته، والحركة في دمه، والحركة في مجتمعه، وفي تكوين هذا المجتمع العضوي... إن الجاهلية من حوله، وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله، والمعركة مستمرة، والجهاد ماض إلى يوم القيامة. على إيقاعات الحركة، وفي أثناء الحركة، يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع، وتتحدد وظيفته، ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه. هذه النشأة، وهذا التكوين، خاصيتان من خصائص المجتمع الإسلامي تميزانه، تميزان وجوده وتركيبه، وتميزان طابعه وشكله، وتميزان نظامه والإجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضاً، وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة، لا تعالج بمفهومات اجتماعية أجنبية عنها، ولا تدرس وفق منهج غريب عن طبيعتها، ولا تنفذ بإجراءات مستمدة من نظام آخر!

المجتمع الإسلامي إذن- من ناحية شكله وحجمه ونوع الحياة السائدة فيه- ليس صورة تاريخية ثابتة، لكن وجوده وحضارته، يرتكنان إلى قيم تاريخية ثابتة.. وحين نقول: "تاريخية" لا نعني إلا أن هذه القيم قد عرفت في تاريخ معين... وإلا فهي ليست من صنع التاريخ، ولا علاقة لها بالزمن في طبيعتها... إنها حقيقة جاءت إلى البشرية من مصدر رباني.. من وراء الواقع البشري. ومن وراء الوجود المادي أيضا.

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة، لأنها هي مقومات هذه الحضارة: (العبودية لله وحده. والتجمع على أصرة العقيدة فيه. واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة. وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته.. وحرمة الأسرة. والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه.. وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة)...

إن "اشكال" الحضارة الإسلامية التي تقوم على هذه الأسس الثابتة، تتأثر بدرجة التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي، لأنها تستخدم الموجود منها فعلاً في كل بيئة.. ومن ثم لا بد أن تختلف أشكالها.. لا بد أن تختلف لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمستويات في الإطار الإسلامي، والتكيف بالقيم والمقومات الإسلامية.. وهذه المرونة - في الأشكال الخارجية للحضارة - ليست مفروضة على العقيدة الإسلامية التي تنبثق منها تلك الحضارة إنما هي من طبيعتها. ولكن المرونة ليست هي التميع.. والفرق بينهما بعيد جدا!

لقد كان الإسلام ينشئ الحضارة فَي أواسط أفريقية بين العراة... لأنه بمجرد وجوده هناك تكتسي الأجسام العارية ويدخل الناس في حضارة اللباس التي يتضمنها التوجيه الإسلامي المباشر، ويبدأ الناس في الخروج كذلك من الخمول البليد إلى نشاط

العمل الموجه لاستغلال كنوز الكون المادي، ويخرجون كذلك من طور القبيلة - أو العشيرة- إلى طور الأمة، وينتقلون من عبادة الطوطم المنعزلة إلى عبادة رب العالمين.. فما هي الحضارة إن لم تكن هي هذا؟.. إنها حضارة هذه البيئة، التي تعتمد على إمكانياتها القائمة فعلا... فأما حين يدخل الإسلام في بيئة أخرى فإنه ينشيء- بقيمه الثابتة- شكلا آخر من أشكال الحضارة يستخدم فيه موجودات هذه البيئة وإمكانياتها الفعلية وينميها.

وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة- بطريقة الإسلام ومنهجه- على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي. وإن كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم- عند وجوده - وتدفعه إلى الأمام دفعا، وترفع أهدافه. كما إنها تنشئه إنشاء حين لا يكون، وتكفل نموه واطراده.. ولكنها تظل في كل حال قائمة على أصولها المستقلة. ويبقى للمجتمع الإسلامي طابعه الخاص، وتركيبه العضوي، الناشئان عن نقطة انطلاقة الأولى، التي يتميز بها من كل مجتمعات الجاهلية..

"صِبغَة الله ومن أحَسنُ من الله صِبغة؟"....(البقرة : 138)

التصور الإسلامي والثقافة

إن مدلول "الحاكمية" في التصور الإسلامي لا ينحصر في تلقى الشرائع القانونية من الله وحده. والتحاكم إليها وحدها. والحكم بها دون سواها.. إن مدلول "الشريعة" في الإسلام لا ينحصر في التشريعات القانونية، ولا حتى في أصول الحكم ونظامه وأوضاعه. إن هذا المدلول الضيق لا يمثل مدلول "الشريعة" والتصور الإسلامي! إن "شريعة الله" تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية.. وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول الأخلاق، وأصول السلوك، واصول المعرفة أيضاً.

يتمثل في الاعتقاد والتصور- بكل مقومات هذا التصور- تصور حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، غيبه وشهوده، وحقيقة الحياة، غيبها وشهودها، وحقيقة الإنسان، والارتباطات بين هذه الحقائق كلها، وتعامل الإنسان معها. ويتمثل في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والأصول التي تقوم عليها، لتتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده. ويتمثل في التشريعات القانونية، التي تنظم هذه الأوضاع. وهو ما يطلق عليه اسم "الشريعة" غالباً بمعناها الضيق الذي لا يمثل حقيقة مدلولها في التصور الإسلامي. ويتمثل في قواعد الأخلاق والسلوك، في القيم والموازين التي تسود المجتمع، ويقوم بها الأشخاص والأشياء والأحداث في الحياة الاجتماعية. ثم.. يتمثل في "المعرفة" بكل جوانبها، وفي أصول النشاط الفكري والفني جملة...

إن المسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بحقائق العقيدة، أو التصور العام للوجود، أو يختص بالعبادة، أو يختص بالخلق والسلوك، والقيم والموازين، أو يختص بالمبادئ والأصول في النظام السياسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنساني وبحركة التاريخ الإنساني... إلا من ذلك المصدر

الرباني، ولا يتلقى في هذا كله إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه، ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة.

ولكن المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة، كالكيمياء، والطبيعة، والأحياء، والفلك، والطب، والصناعة، والزراعة، وطرق الإدارة - من الناحية الفنية الإدراية البحتة - وطرق العمل الفنية، وطرق الحرب والقتال - من الجانب الفني- إلى آخر ما يشبه هذا النشاط... يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغيرِ المسلم.. وإن كان الأصل في المجتمع المسلم حين يقوم، أن يسعى لتوفير هذه الكفايات في هذه الحقول كلها، باعتبارها فروض كفاية، يجب أن يتخصص فيها أفراد منه. وإلا أَثِمَ المجتمع كله إذا لم يوفر هذه الكفايات، ولم يوفر لها الجو الذي تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج.. ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم أن يتلقى في هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من المسلم وغير المسلم، وأن ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم، وأن يشغل فيها المسلم وغير المسلم.. لأنها من الأمورالداخلة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”أنتم أعلم بأمور دنياكم“.. وهي لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان، وفي غاية وجوده، وحقيقة وظيفته، ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله، بخالق الوجود كله، ولا تتعلق بالمبادىء والشرائع والأنظمة والأوضاع التي تنظم حياته أفراداً وجماعات. ولا تتعلق بالأخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التي تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع.. ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ عقيدته، أو ارتداده إلى الجاهلية!

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني كله أفراداً أو مجتمعات، وهو المتعلق بالنظرة إلى ”نفس“ الإنسان وإلى ”حركة تاريخه“، وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون، ونشأة الحياة، ونشأة هذا الإنسان ذاته - من ناحية ما وراء الطبيعي - (وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب إلخ..) فالشأن فيه، شأن الشرائع القانونية والمبادىء والأصول التي تنظم حياته ونشاطه، مرتبط بالعقيدة إرتباطاً مباشراً، فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم، يثق في دينه وتقواه، ويعلم عنه أنه يتلقى في هذا كله عن الله.. والمهم أن يرتبط هذا في حس المسلم بعقيدته، وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده، أو مقتضى شهادته: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

إنه قد يَطَّلِع على كل آثار النشاط الجاهلي. ولكن لا لِيكوِّن منه تصوره ومعرفته في هذه الشؤون كلها، إنما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية! وليعرف كيف يصحح ويقوِّم هذه الانحرافات البشرية، بردها إلى أصولها الصحيحة في مقومات التصور الإسلامي، وحقائق العقيدة الإسلامية.

إن اتجاهات ”الفلسفة“ بجملتها، واتجاهات ”تفسير التاريخ الإنساني“ بجملتها، واتجاهات ”علم النفس“ بجملتها - عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها- ومباحث ”الأخلاق“ بجملتها، واتجاهات دراسة ”الأديان المقارنة“ بجملتها، واتجاهات ”التفسيرات والمذاهب الاجتماعية“ بجملتها- فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة، لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات

الكلية الناشئة عنها-.. إن هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي- أي غير الإسلامي- قديماً وحديثاً، متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات، ومعظمها - إن لم يكن كلها- يتضمن في أصوله المنهجية عداءً ظاهراً أو خفياً للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي على وجه خاص!

والأمر في هذه الألوان من النشاط الفكري- والعلمي! - ليس كالأمر في علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والأحياء والطب، وما إليها - ما دامت هذه في حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية، دون أن تجاوز هذه الحدود إلى التفسير الفلسفي في صورة من صوره، وذلك كتجاوز الداروينية مثلاً لمجال إثبات المشاهدات وترتيبها في علم الأحياء، إلى مجال القول- بغير دليل وبغير حاجة للقول كذلك إلاَّ الرغبة والهوى- إنه لا ضرورة لافتراض وجود قوة خارجة عن العالم الطبيعي لتفسير نشأة الحياة وتطورها. إن لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشؤون، وفي المستوى الذي تبدو فيه محاولات البشر في هذه المجالات هزيلة ومضحكة.. فضلاً عن أن الأمر يتعلق تعلقاً مباشراً بالعقيدة، وبالعبودية الكاملة لله وحده.

إن حكاية أن "الثقافة تراث إنساني" لا وطن له ولا جنس ولا دين.. هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية - دون أن تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية "الميتافيزيقية" لنتائج هذه العلوم، ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه، ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعاً. ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصايد اليهود العالمية، التي يهمها تمييع الحواجز كلها- بما في ذلك، بل في أول ذلك حواجز العقيدة والتصور- لكي ينفذ اليهود إلى جسم العالم كله، وهو مسترخ مخدر، يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطاني، وفي أوله نشاطهم الربوي، الذي ينتهي إلى جعل حصيلة كد البشرية كلها، تؤول إلى أصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود!

ولكن الإسلام يعتبر أن هناك - فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية - نوعين اثنين من الثقافة: الثقافة الإسلامية القائمة على قواعد التصور الإسلامي، والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها إلى قاعدة واحدة.. قاعدة إقامة الفكر البشرى إلهاً لا يرجع إلى الله في ميزانه. والثقافة الإسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكري والواقعي الإنساني، وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائماً.

ويكفي أن نعلم أن الاتجاه التجريبي، الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الأوربية الحاضرة، لم ينشأ ابتداء في أوروبا، وإنما نشأ في الجامعات الإسلامية في الأندلس والمشرق، مستمداً أصوله من التصور الإسلامي وتوجيهاته، إلى الكون وطبيعته الواقعية، ومدخراته وأفواته.. ثم استقلت النهضة العلمية في أوروبا بهذا المنهج، واستمرت تنميه وترقيه، بينما ركد وترك نهائياً في العالم الإسلامي بسبب بعد هذا العالم تدريجياً عن الإسلام، بفعل عوامل بعضها كامن في تركيب المجتمع وبعضها يتمثل في الهجوم عليه من العالم الصليبي والصهيوني.. ثم قطعت أوروبا ما بين المنهج

الذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية، وشردت به نهائيا بعيدا عن الله، في أثناء شرودها عن الكنيسة، التي كانت تستطيل على الناس - بغياً وعدواً- باسم الله! [2]

وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوربي بجملته- شأنه شأن إنتاج الفكر الجاهلي في جميع الأزمان في جميع البقاع- شيئا آخر، ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامي. ومعادية في الوقت ذاته عداء أصيلاً للتصور الإسلامي.. ووجب على المسلم أن يرجع إلى مقومات تصوره وحده، وألا يأخذ إلا من المصدر الرباني إن استطاع بنفسه، وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقي، يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه إلى الأخذ عنه.

λ_;

[2] راجع فصل: "الفصام النكد" في كتاب: المستقبل لهذا الدين.